رواية

يرحلون ونبقى

حتى عنوان انتصاري هزيمة

راما يوسف الحاج علي
RAMA YOUSOF

مكتبة الأسرة العربية
اسطنبول
نحو أسرة عربية واعية
ARAP AİLE KÜTÜPHANESİ - İSTANBUL

بسم الله الرحمن الرحيم

يرحلون ويبقى

YARHALUN WA NABKA

RAMA YOUSEF ALHAJ ALİ

1. Baskı: İstanbul

2021 - 1442

رواية

يرحلون ويبقى

حتى عنوان انتصاري هزيمة

راما يوسف الحاج علي

مكتبة الأسرة العربية
اسطنبول
نحو أسرة عربية واعية
ARAP AİLE KÜTÜPHANESİ - ISTANBUL

يرحلون ونبقى

راما يوسف الحاج علي

تدقيق وتنقيح: آ. مريم شَرف

القياس: 14.5 X 21.5 سم

عدد الصفحات : 400 ص

ISBN: 978-605-7618-60-3

الطبعة الأولى

١٤٤٢ هـ - ٢٠٢١ م

جميع الحقوق محفوظة، ويمنع نشر أو إنتاج هذا الكتاب أو جزء منه أو تخزينه على أجهزة استرجاع أو استرداد إلكترونية أو ميكانيكية أو تصويره كفيلم أو نقله بأي وسيلة أو تسجيله على أي نحو كان دون أخذ موافقة خطية من الكاتبة.

مكتبة الأسرة العربية اسطنبول

نحو أسرة عربية واعية..

ARAP AİLE KÜTÜPHANESİ - İSTANBUL

طباعة ونشر وتوزيع

إصدارات مُختارة للأسرة العربية

www.arabfamilybs.com

+90 212 631 81 09 - +90 531 935 71 31

info@arabfamilybs.com

UFUK neşriyat

BASIN-YAYIN-DAĞITIM

Sertifika No: 35657

UFUK NEŞRİYATIN® TÜRKİYE BASIM YAYIN MESLEK BİRLİĞİ ÜYESİDİR.

Baskı Cilt: Enes Basın Matbaacılık Ltd. Şti. Litros Yolu Fatih San. Sit. No: 12/210 - Topkapı / İstanbul

الإهداء

لذلك القلبِ اليُوسُفيِّ الذي يزعمونَ أنَّهُ توقفَ عن النَّبضِ في غياهبِ جبٍّ مظلمٍ.

لذلك النَّقاءِ المريميِّ الذي زرعني بذرةَ خيرٍ وسقاني بماءِ الحبِّ لأنبتَ نباتاً حسناً، فأتوسَّطَ بذلك عقدَ زهورهِ المُزدانِ بالإيمانِ والنُّورِ والتُّقى والمودَّةِ.

لأساتذتي ومُعلميَّ ودكاترتي الذينَ زرعوا في نفسي معانيَ عظيمةً.

لتلكَ الصَّغيرةِ الشقراءِ، زرقاء العينينِ، التي جمعني بها لقاءٌ يتيمٌ في إحدى مناوباتي، مستلقيةً على أحدِ أسرَّةِ غرفةِ الإسعافِ. لم تنبس ببنت شفة، لكن عينيها الواسعتين كانتا تحكيانِ ألماً كبيراً، قبل أن تغمضهما، إلى الأبد...

لأصحابِ الخوذِ البيضاءِ كقلوبهم، الذين كانوا وما زالوا بنظري أبطالاً خارقين تعجز الكلمات عن وصف بسالتهم.

لتلك العظيمة التي علمتني بصمودها الكثير، لغوطتي الحبيبة ولجروحها التي لن تندملَ، وأيضاً لتلك الوعود التي وعدتها بها قُبيل الغياب عند آخر محطات الوداع.

لسوريَّتي ولكلِّ حُرٍّ.

لجنودٍ مجهولين طبطبوا على قلبي يوماً بكلمةٍ أو ابتسامةٍ أو دعاءٍ.

لكُم جميعاً أهدي حروفَ أسطورتي، روايتي...

راجيةً من الله أن يجعلَ عملي هذا خالصاً لوجههِ الكريمِ وأن يمنحنا السَّلام الذي نرنو إليه.

راما

عندما تكتبُ

تنثرُ بعضاً من زهور الياسمين الشاميّ على مكتبها...

مؤمنة هي أن بعض الروائح ملهمة،

ولا سيما إن كان الأمر يتعلق برائحة وطن!

المقدمات الداعمة

تقديم المناضل علي العكرمي:

لعلهُ من بركات صدور رواية (طريق جهنم) للروائي المبدع د. (أيمن العتوم)، التي تتحدث عن الحياة السجنية في ليبيا طيلة أربعة عقود بما فيها الثلاثين عاما التي أمضيتُها خلف القضبان أن فتحت لي الأبواب مشرعة لنسج علاقات وطيدة مع أطياف عديدة في ربوع عالمنا العربي، ممن اكتووا بنار الاستبداد، ودفعوا الثمن غالياً، من فقدان للوالد والزوج والولد، وذاقوا مرارة الفقد. ومن بين هؤلاء الكاتبة (راما يوسف الحاج علي) التي شرَّفتني بالاطلاع على باكورة أعمالها الروائية التي تستعد لإصدارها، رواية (يرحلون ونبقى)، وشرَّفتني كذلك بكتابة إحدى مقدماتها، إحساساً منها بأننا على متن مركب واحد، وجُلِدنا بسوط واحد، وتجرعنا من نفس الكأس التي فرضها علينا الاستبداد.

رواية (يرحلون ونبقى)، رواية آسرة ومشوقة، اجتمعت لها خصائص العمل الإبداعي وشروط العمل الفني المتقن. حيث ساهمت لغتها المثيرة في خلق قوة جاذبة لا يستطيع القارئ الانفكاك من سلطانها.

أما عن الكاتبة، فقد كتبت روايتها بدم قلبها النازف، آيات الأحزان والآلام التي يعيشها الإنسان. كتبت بعقلها المعنى عن هموم أمتنا الجريحة التي نال منها الهوان، وأعمل فيها الاستبداد مخالبه فأصابها في مقاتلها.

«رواية فاجعة، والفجيعة صادمة، والحالة لا تعرف إلا بكشفها وتعريتها. ألم ممض، ولكن في مبضع الجراح الشفاء. رواية تستبطن معاني كبيرة وتكشف عن أسرار مخفية...»

لقد عايشت الكاتبة حصار الغوطة، وشاهدت بعينيها البطولات الخارقة للثوار، والجرائم الفاجعة لنظام أباد شعبه وجعله حقلاً لاختبار كل ما تقذفه أسلحة الدمار.

رواية (يرحلون ونبقى) تتحدث عن أسرة من الأُسَرِ السورية، تتكون من أم وخمس بنات، يُقتَحَمُ بيتهم، ويعتقل أبوهم بعد مكالمة هاتفية لا تتجاوز الثلاثين ثانية. (يوسف الحاج علي) خطيب مسجد عثمان بن عفان في مدينة عربين بريف العاصمة السورية دمشق. رجل تلبَّسته القيم والفضائل، تلك الشخصية العصية على الاستسلام والانقياد للظلم والمهانة والاستبداد، ليقينه بصدق دعوته، وإيمانه العميق أن الأشجار تموت واقفة في مواجهة الاستبداد والمستبدين.

أسرة كانت تعيش آمنة مطمئنة، تنقلب حياتها فجأة إلى جحيم. أسرة تناهشتها المنافي وأكلت أكبادها عذابات الشتات. تتولى الأم بعد ذلك قيادة السفينة التائهة في بحار تتقاذفها الأمواج العاتية. وما أروع شخصية هذه الأم كما تصفها الكاتبة عندما تقول عنها: (حتى لاحت لي من بعيد امرأة صنديدة قوية، لا تعرف الانهزام، ولكأن النخلة اليوسفية آلت الآن إلى مريم هزت إليها بجذعها فاساقط عليها رطب الثبات).

وبعد سبع سنوات عجاف من سنوات الجمر، تقلبت فيها الأجواء حارة وباردة على

هذه الأسرة المكلومة، يتناهى إلى سمعها خبر استشهاد الأب تحت سياط التعذيب. ولطالما تمنت الكاتبة التي كانت تعتبر -الآباء نجوم مطرزة في السماء- أن تنتهي محنة أبيها نهاية سعيدة، يلتم فيها الشمل بعد طول فراق. يأتيها البشير يلقي عليها قميص يوسف فترتد بصيرة. ولكن إرادة الله شاءت أن يلفظ أنفاسه الطاهرة في معسكرات الاعتقال وترتقي روحه إلى باريها شاهدة على فظاعة الاستبداد.

كما تتحدث الرواية باستفاضة على ثورة الشعب السوري على النظام المستبد الذي أناخ بكلكله على صدر الشعب، وسيطر على مقاليد الحكم لأكثر من خمسين عاماً، توارث فيها الابن السلطة عن أبيه. هذه الثورة التي اضطر الشعب السوري لتفجيرها بعدما أدرك أن السلاح هو الطريق الوحيد للخلاص، وأن الحوار مع نظام مجرم لا يعرف إلا القتل والسحل إنما هو بمثابة صيحة في واد ونفخة في رماد.

وأنى لمعركة بين شعب أعزل، ونظام مدجج بالسلاح لا يرى ضيرا في قصف مواطنيه بالسلاح الكيماوي، وخنفه بغاز السارين، أن تؤتي أكلها في وقت يفتقر فيه الثوار لمشروع واضح للتغيير، وينعدم لدى النخب البرنامج السياسي ذو المضمون الاقتصادي والاجتماعي الذي يكون في مستوى التحديات، ويجيب على الأسئلة الملحة لمشاكل الشعب المزمنة.

إن الثورات التي لا تستكمل أدوات نجاحها تحكم على نفسها بالفناء. إن أقسى سؤال تطرحه الكاتبة وهي تشاهد بأم عينيها استهتار السياسيين بدماء الشهداء، والتفكك في صفوف الثوار، والصراع المحتدم بين مختلف الفرقاء، لدرجة أن يشهر أخوة الدم والسلاح من الثوار بنادقهم في وجوه بعضهم البعض، هو (لم انتصروا، ولم هُزِمنا؟ أو لم يكونوا الباطل وكنا الحق! كانوا الباطل أجل، ولكننا لم نكن الحق كما ينبغي). (ما فائدة أن يزيح الفساد فساداً، أو أن يزيل الدنس دنسا مثله).

ثم تضع الكاتبة أصبعها الدامي على الجرح النازف حين تشخص الواقع الآسن وتستخلص الحقيقة المرة فتقول: (أرى يا صديقي أننا لسنا طرفا من أطراف اللعبة، لسنا سوى رقعة شطرنج تحتضن فوقها كل المعارك والجولات، رقعة مهترئة تتصارع فوقها أحجار الدنيا لتصفية حساباتهم)

إن الثورات كما يراها د. (أيمن العتوم) في روايته (طريق جهنم) تحتاج أن يقودها مفكرون متنورون، يرسمون لها طريقها، ويحددون معالمها، أما أن تكون هبة شعبية تتحول ربما إلى فوضى في النهاية فهذا ما كنت أخشاه، لكنني قلت إن لم يكن في الفوضى إلا أن تقتلع في طريقها الطغيان فبها ونعمت.

إن الثورات التي غيرت مصائر الشعوب حدثت ببطء وببطء شديد، فالتغيير يحتاج إلى أجيال، والوصول إلى الغايات يمر عبر طريق طويلة وشائكة.

رواية (يرحلون ويبقى) رواية مهمة، لأنها توثق وتؤرخ لثورات الشعوب التي لم تأت عفو الخاطر، ولم تكن ضربة لازب، بل جاءت عبر تراكم من التضحيات وبحور من العذابات، وتميط اللثام على طبيعة الاستبداد والمستبدين، وتمثل مرجعاً تاريخياً يحكي عن تضحيات الشهداء، وعذابات الشعوب المستضعفة، لا سيما وأن أغلب تاريخ بلادنا لا يزال شفهياً، والتاريخ الشفهي من علامات الشعوب البدائية.

لقد شاءت العناية الإلهية أن يكون الصراع بين الخير والشر صراعاً أبدياً ومستمراً ما دامت السماوات والأرض، وأن الباطل مهما انتفش فهو إلى زوال، وأن الشعوب المظلومة ستنتصر في النهاية على جلاديها، وأن نور الحق سيسطع من جديد، وسيخرج كما يخرج الورد من بين ثنايا الشوك. عزاؤنا أننا لم نستسلم، ولم نرض الدنية في ديننا، ولم نتنكر لأوطاننا، ولم نتخل عن مبادئنا، وأننا أفنينا زهرة شبابنا في الزنازين المقرورة

الصلدة، وواجهنا الطغيان في سبيل نصرة قضايانا العادلة بصدور عارية في وقت قل فيه النصير وعز فيه الظهير.

نسأل الله أن تكون دماء الشهداء لعنة في صدور الظالمين، ووروداً وزهراً وياسميناً على جباه الأمهات المكلومات، والزوجات الثكالى، والأطفال الذين تجرعوا مرارة اليتم، وأن تكون تضحياتهم التي تنوء عن حملها الجبال صدقة جارية لهم يوم العرض الأكبر، وأن يكونوا شفعاءنا يوم الدين.

علي العكرمي

تونس

٢٣ يناير ٢٠٢١

تقديم الصحفي منصور العمري:

(يرحلون ونبقى) وثيقة تاريخية تقبضها كالجمر نسمات حب ابنة لأبيها. تجسد الرواية محبة راما لأبيها يوسف الذي قضى في معتقلات الأسد، بلغة جذابة، ووصف مُقتدر لمشاعر الابنة تجاه أبيها، أعظم المشاعر وأنقاها التي قد تحملها الأنثى. يمتزج في الرواية خط المشاعر الأخاذة بالتوثيق المسترسل لأحداث عاشتها راما، تبدأ في غوطة دمشق التي دمرتها قوات الأسد، وتستمر في المنفى.

تحفظ هذه الرواية التاريخ الشفهي لمرحلة هامة في الثورة السورية، من منظور نسوي يافع لا ذكوري كما اعتدنا. فتقدم لنا سرداً لا يقتصر فقط على مشاهداتها ومشاعرها، بل يشمل نظرة رفيقاتها وأحوالهن في تلك المرحلة. هذا ما يحيل الرواية إلى نافذة سرية تطل على أعماق معاناة الأنثى، ونظرتها لما يجري حولها في سوريا إبان الثورة السورية وتأثيرها على العلاقات العائلية من منظور نسوي. يتوازى سرد راما مع تطور نظرتها تجاه الأحداث التي كانت تعيشها من طفولتها وحتى بداياتها اليافعة.

تصف الرواية تفاصيل المداهمات والاعتقال من منظور مراقب خارجي، كما تروي بدقة أحوال الناس تحت قصف الأسد، بما فيه ضربة الأسد الكيماوية لغوطة دمشق عام ٢٠١٣: (ذلك الفجر نادى المؤذن: الله أكبر، الأسد ضرب كيماوي).

عند خروجي من المعتقل، تواصلت مع عائلة الإمام يوسف وأبلغتهم بمكان اعتقاله، وتحدثت لهم عنه. أكثر ما آلمني كان عندما علمت منهم أن الإمام يوسف كان يتعلم اللغة الإنكليزية قبل اعتقاله. حينها فقط أدركت سر اهتمامه الكبير بالانضمام إلى مجموعات المعتقلين الذين كنت أدرسهم اللغة الإنكليزية همساً في زنزانة تحت

الأرض. حينها فقط فهمت سبب السعادة التي كانت تبدو عليه في كل مرة كنت أبدأ الدرس. ربما أحس يوسف أن الله أرسل له من يكمل له ما أراد حتى في زنزانة تحت الأرض، بلا أضواء أو أقلام وأوراق. بعد بضعة شهور، روى يوسف قصته اليومية المعتادة للمعتقلين همساً ولكن رواها باللغة الإنكليزية هذه المرة.

للأسف لم ينجُ يوسف من المقتلة، ولكن يرحلون ونبقى مداداً ليوسف ولذاكرته وآماله. هي رسالة للجميع بأننا لن ننسى، بل سنكمل ما بدأه من سبقنا.

حملت راما الأمانة كمن يحمل الجمر في يده، وتمسكت بها وهي تنجو من الموت مرة بعد أخرى في غوطة دمشق، ثم خرجت بها إلى منفاها، حيث سلمتها لنا أخيراً هنا: (يرحلون ونبقى).

منصور العمري

صحفي وحقوقي سوري

٢٨ ديسمبر ٢٠٢٠

تقديم الدكتور براء سراج:

هل هي قصة حب وبر ابنة بأبيها؟ أم هي قصة الأب الذي اختطفه مجرمو الاستبداد ليستشهد تحت التعذيب في سجون الأسد فكان الغائب جسداً الحاضر روحاً في كل حرف لو نطق لبكى وأبكى؟ أم هي قصة الأم التي كان عليها أن تنوء بحمل الجبال فتحافظ على أسرتها في وجه عواصف الحصار والقذائف والكيماوي والنزوح وعصابات التهريب وعنصرية أرض المهجر؟ أم هي قصة إصرار طالبة أن تشق طريقها نحو العلم عبر الأنفاق وبين الأبنية المهدمة والجرحى والجثث والأطراف الاصطناعية واستشهاد زميلاتها ومدرسيها وغياب أدنى مقومات الحياة ثم عبر المحاولات المتكررة للهروب من حضن الوطن الشائك؟ أم هي قصة عائلة سورية كتب الله لها أن تبقى على قيد الحياة لتقص بعضاً من جرائم الأسد وداعميه بينما رحل الآلاف دونما أثر؟ أم هي قصة كل مدينة محا الأسد عمرانها وهجر أهلها فقط لأنهم قالوا لا؟ إنها ليست قصة ولا رواية بل واقع عاشه أبطاله رعباً وألماً وتضحيةً وإيثاراً وحب دين ووطن! هو كتاب كل من شخصياته بطل!

لم أتردد لحظة بالقبول عندما عُرِضَ عليَّ الانضمام للكادر التدريسي التطوعي في جامعة حلب في المناطق المحررة بدءاً بفرعها في غوطة دمشق الشرقيَّة ثم بفرعها في الشمال السوري المحرر. كان ذلك أواخر عام ٢٠١٦ وكانت راما مؤلفة الكتاب وأختاها مؤمنة ونور بين طالباتي في كلية الطب البشري. كان تدريسي لهم عبر الإنترنت وبالتعاون مع جامعة نيويورك بمدينة ألباني. حقيقة وبرغم ما مررت به في سجون الأسد أكثر من عقد من الزمن وبعمر يماثل تقريباً عمر طلابي إلا أنه لا يحس بالمأساة مثل من عاشها. برغم أن أحد الأساتذة الموجود في الغوطة والذي كان ينسق مادة المصطلحات الطِّبية معي طلب مني أن يكون الامتحان مبكراً حوالي

السابعة قبل بدء طائرات الأسد والروس في قصفها اليومي لمدن الغوطة، لكن ما كتبته راما أنها كانت تخرج في الظلام قبل الفجر للجامعة قد ألقى ضوءاً أكبر عن عمق الجريمة التي عاشها الناس ولسنوات تحت سمع العالم «المتمدن» وبصره. لم أكن أتصور يوماً أن ذلك الجوع الذي منعنا النوم ليالي تدمر والعطش الذي عشناه أيام ١٩٨٧ في مهاجع تدمر سيعيشه أهل الغوطة تحت القصف في ٢٠١٨! ما كان ليخطر ببالي يوماً أن (التسييف) ذلك المصطلح الخاص بطريقة النوم المعتادة في سجون الأسد المكتظة سيقوم الأسد الابن بتعميمه على أقبية مدن الغوطة كسجن لا يقل إجراماً عن سجن تدمر.

صحيح أن المآسي تفوح من سطور الكتاب لكن الرحمات والآمال لم تكن بأقل هديراً بين تلك السطور. فهذه المرونة على تلقي الصدمات واستيعابها وتحويلها إلى نجاحات مثال عائلة يحتذى.

تلك الإرادة الجبارة لراما على حفظ القرآن ودراسة الطب في ظروف كالتي مرت بها لا تكاد تجارى. ذلك الصبر على فقدان الأب والجد والعمة وزميلات الدراسة وأساتذتها لا يستطيعه إلا ذو حظ عظيم. تلك الجمل التي ختمت بها راما كلاً من فصول هذا الكتاب هي معان بليغة عميقة نبعت من تجربة حياة -برغم صغر سن كاتبتها- يستحق كل منها وقفات طوالاً لسبر غورها. قدياً علمتني تدمر أن لا أجمل من قدر ربك. إليك كتاباً يجب أن تقرأه ليعلمك أن ترضى بقدر الخالق لا بظلم مخلوق!

براء سراج

مؤلف كتاب من تدمر إلى هارفارد

شيكاغو، الولايات المتحدة

٣٠ نوفمبر ٢٠٢٠

تقديم الدكتور ياسر العيتي:

(أكتب هنا من أجل ثورة، من أجل قضية ومبدأ، من أجل سورية الحرة، من أجل أن أكون صادقة تجاه أخلاق وقيمي، وأخيراً من أجل أن أقول تبت أيادي سارقي الثورات)، بهذه الكلمات قدّمت راما لروايتها الآسرة وطلبت مني أن أكتب مقدمة لها فوعدتها أن أقرأ الرواية خلال أسبوع لكن ما إن بدأت القراءة لم أستطع أن أشيح عيني عنها حتى بلغت السطر الأخير.

الرواية تنزل على القلب كالصاعقة التي تؤلم وتبهر وتضيء في آن واحد! كيف لا والكاتبة انتزعت كلماتها من مسرح دموي اختلط فيه الموت بالحياة وأصبحت لملمة الأشلاء عادة يومية، لكن هذا المسرح كان مشغولاً أيضاً بالكثير من الحب والعطاء والتضحية وفيض من الكرامة والعنفوان والإباء ما كان للنظام المجرم أن يسمح له بالخروج من أرض الغوطة الطاهرة لينداح في طول سورية وعرضها.

إضافة إلى جمال الأسلوب وصدق المشاعر تمتلئ الرواية بالأفكار والأسئلة العميقة التي طرحتها الثورة السورية كواحدة من أكثر الثورات إنسانية ونبلاً عبر التاريخ.

كسب النظام معركته العسكرية في الغوطة لكن معركة العقول والقلوب كسبتها راما، وكسبها كل من قدم لهذه الثورة من حياته وفكره وعلمه وعمله، وما هذه الرواية إلا إحدى أزاهير هذه الثورة المباركة التي ستتناثر برغم أنوف الظالمين لتملأ الدنيا بعبيرها وتجعل عالمنا أكثر عدلاً وكرامة وجمالاً.

د.ياسر العيتي

استنبول، تركيا

٢٣ يناير ٢٠٢١

مقدمة الكاتبة

في كلِّ يوم، بُعيدَ منتصفِ الليلِ، أطوفُ غرفَ المنزلِ غرفةً غرفةً، أتأكَّدُ من أنَّ الجميعَ نيامٌ، أدخلُ غرفتي، أديرُ المفتاحَ في القفل ثلاثاً، أتحقَّقُ من إغلاقِ البابِ بإحكام، أُبقي على جميع الأنوارِ مُطفأة، أتقدمُ نحوَ خزانتي، أسحبُ من درجها الثَّالثِ قداحةً وشمعةً صغيرة أُنيرها، يهتزّ لهبُ نارها يُمنةً ويُسرةً، كلُّ ما في الكونِ يتصارعُ حتى لهبُ الشمعةِ مع الهواء، بعد ثوانٍ يعلن النورُ الخافتُ انتصارهُ بوَجَل.

أضعُ الشَّمعةَ هناك، تماماً بيني وبين المرآةِ التي يرتسمُ عليها شبحٌ لكائنٍ لا أعرفه غير أنَّني اتخذته صديقاً، أجلسُ إليه فأحدثه بكل ما يجولُ في خاطري، ماضيَّ ومستقبلي، آلامي وأحلامي، خيباتي وانتصاراتي، وكل شيء...

لستُ أدري كم ألبثُ في حديثيَ اليوميِّ معه، لأنني دائماً ما يسرقني النومُ من غمرةِ اندماجي، لأستيقظ في الصباح التالي فلا أجده، غير أنه يعاود المجيء ليلاً.

كنتُ أحكي له الكثيرَ، وأندبُ له الكثيرَ، أعيد له القصص التي تؤلمني مراتٍ ومراتٍ ظناً بأنني كلما كررتها سأعتادها وستصبحُ مألوفة عندي، غيرَ أنني لم أُصِب، فشلالات الدموع التي ذرفتها وأنا أروي له حكاياتي المؤلمة للمرة المئة لم تكن بأقل -ولو بقطرة واحدة- من تلك التي ذرفتها ساعة الحدث، حيثُ لا شيء يدعى اعتيادَ الآلام.

وجدتُه متفهماً ومتقبلاً، ووجدت في حديثي معه تفريجاً لهمي وتنفيساً عن كربتي، كان ملجئي وملاذي بعدما سئمت من التنقيب في عالم البشر عن قلبٍ يحتويني، بعدما تعبت من تسوّل أذن تصغي إليّ، بعدما مللتُ البحثَ عن حضنٍ يتسعُ لي ولخيباتي.

خجلتُ يوماً منه، فأنا ومذ ليلة التقيته أول مرة أثرثر دون أن أسْمَعهُ ينبس ببنتِ شفة، كان يكتفي بالإصغاءِ إليَّ وحسب.

طرقتُ بابَ الحوارِ معه يوماً، غير أنه لم يفتَحهُ، سألته عن حاله؛ فلم يجب، عن اسمه؛ آثر الصمت، عما إذا كان ينزعج من أحاديثي الطويلة؛ لم ينطق، واكتفى بالابتسام.

اكتشفتُ بعد ليالٍ طويلة أنه كان أبكماً، غيرَ أنه ليس بالأصمِّ. صحيح أنه لم يكن يشاركني حرفاً واحداً، ولكنه كان يشاركني دموعي كلها دمعةً دمعةً، لقد كنتُ أرى بريق ماء مقلتيه عند انعكاس ضوء الشمعة عليهما.

أُحسُّ معه بالتجاوز، بأنني أدوس على الماضي وأرمي بأحمال ذاكرتي الشوهاء مع كل كلمة أقولها له.

إلى أن جاء ذلك اليوم الذي اكتشفت فيه بأنني كنت مخطئة، وبأنني لا أتجاوز بل إنما أتحايل على نفسي ليس إلَّا، ألعب برفوف الذاكرة، أحاول أرشفة الماضي بترتيب أحداثه على نحوٍ ما ليبدو أكثر منطقية، ولكن يستحيل لـــ اللامنطقية أن تصير العكس مهما حاولنا التلاعب بها.

اكتشفتُ ذلك في إحدى الليالي التي لم يزرني فيها ذلك الشبحُ، افتقدتهُ، حزنتُ بدايةً، ولكنني وجدت الفرصةَ مواتيةً لتفقُّدِ حالِ قلبي. رحتُ أعدُّ الثقوب التي تخترقه، الندوب التي تملؤه، الطَّعناتِ التي تذبحه، فتفاجأتُ بأن عددها قد كَثُر، تعاظَم، تضاعف بصورةٍ أُسِّيَّة، ازداد بعدد المرات التي كنت أقصّ له بها الذكريات، بعدد

حروفي التي نطقتها أمامه، بعدد الدموع التي ذرفتها بين يديه، بعدد لحظاتِ الصَّمتِ التي كانت تتبعُ النَّحيبَ الطويلَ، فأيقنتُ أنَّ ذلك الشبحَ الأبكم لم يكن إلا أنا...

ومن ليلتها صرت أنام قبلَ الجميع، أترك بابَ غرفتي مفتوحاً على مصراعيه سامحةً لكميةٍ كبيرة من النورِ أن تخرجَ منه، بعدما عزمتُ على إبقاءِ مصباح غرفتي مضيئاً ليلاً نهاراً. ولكن إلى متى سوف أبقى على هذا النحو؟!

وددت لو أمسحُ رفوف ذاكرتي كما أمسحُ رفوفَ مكتبتي، أُمرِّرُ الورقةَ البيضاء على حروفي المغبرة، تماماً كما أمرر الممسحة البيضاءَ على الرَّفِّ المغبر، بشكلٍ أو بآخر يصطبغُ سواد على بياض، أغسله، ثم إلى بالوعة النسيان.

أريدُ أن أنسى ماضيَّ، أن أتخلص من ذاكرتي، أن أهربَ من سجنِ نفسي الذي يقيدني، ولكن كيف؟! أولَم تقل غادة السمان يوماً: (أيُّ هربٍ مادامت الأشياءُ تسكننا، وما دمنا حين نرحل هرباً منها نجد أنفسنا وحيدين معها وجهاً لوجه.)

حقاً، لماذا لا نتذكر إلا ما نودُّ نسيانه؟! لماذا لا تلحُّ علينا إلا الصور التي عزمنا على تمزيقها؟! لماذا لا يأكل أذهاننا إلا الأشخاص الذين نتعمّد تجاهلهم؟! لماذا لا يلحقنا إلا ما نهرب منه؟!

ولكن مهلاً، كيف أهرب من نفسي، وإلى من أهرب مني؟! إلى الله. صرت أكتب لهُ رسائلَ طوالاً، أُسهبُ فيها وأُطنِب، أبكي بين يديه حروفاً، نعم... فالكتابة بكاء، لذلك كنت ومازلت أغرقُ كلما هممت بكتابة نصّ ما.

في تلك الأثناء نشأت بيني وبين الأوراق علاقةٌ غريبةٌ، علاقةٌ تشبه شيئاً من حبٍّ، من عشقٍ، من هُيام. حتى صرت لا أنفصل عنها ولا تنفصل عني، مُلازِمةٌ هي لي كظلي، غدت بئر أسراري ومقبرة أحزاني. عندما صَحِبتُها علَّمتني كيف أنتقل من الموت إلى الحياة، من الزوال إلى الخلود، من الرحيل إلى البقاء...

علمتني أن أتخلى، أن أخفف حمولة قلبي لأستطيع معاودة التحليق من جديد. فَدتني بنفسها وَقبلَت أن ألوّثَ نقَاءها بسوداوية ذكرياتي، وأن أُعكِّر سلامَها بحرب مشاعري. اعتذرتُ منها لكونِ حروفي ثقيلة عليها، ولكنني -حقاً- رأيت أنه من الإجحافِ أن أحمل وحدي كل هذا الثقل بين تلافيف دماغي.

ومن حرفٍ هنا وآخرَ هناك، نَسجتُ خيوط هذه الرواية. بين سطورها ستقرَؤُنِي، أو لنقُل -على وجه أكثر دِقَّة- ستقرأ شيئاً مني، شيئاً مما عايشته في سنوات الحرب التي التهمت باكورةَ شبابي.

ستقرأ شيئاً مما رأيتُ، شيئاً مما عشتُ، وشيئاً مما متُّ...

أكتب هنا وقائعَ حصلت في زمنٍ مجرياتُ أحداثه غير قابلة للفهم، وفي مكانٍ لا تعرفه خريطة الإنسانية، ولكنه يقبع جغرافيّاً على خاصرة العاصمة السورية دمشق.

مكان عدّه المؤرخون في زمن ما جنة من جنان الأرض، كما ذكر (ياقوت الحموي) في كتابه (معجم البلدان): (جنان الدنيا أربع: غوطة دمشق، وصغد سمرقند، وشِعبُ بَوّان، وجزيرة الأبلة، وقد رأيتها كلها فأفضلها: غوطة دمشق)

مكانٌ شكَّل في يومٍ ما أعجوبة من عجائب الدنيا، فقد جاءَ في كتاب (عجائب البلدان) بأن الغوطة هي: (الكورة التي قصبتها دمشق، وهي كثيرة المياه، نضرة الأشجار، متجاوبة الأطيار، مؤنقة الأزهار ملتفة الأغصان، خضرة الجنان، وهي أنزه بقاع الأرض وأحسنها)، وها هي ذي اليوم تشكل من جديد أعجوبة من العجائب ولكن بمفهومٍ آخر هذه المرة.

أكتب هنا من أجل أن أرسم تاريخاً أوثق فيه شيئاً أبعد من الأحداث، تاريخاً أوثق فيه المشاعر. فتوثيق ما حدث -بالنسبة لي- يُعَدُّ واجباً، لأنني على يقين بأن لا شيءَ يبقى غيرَ اللُّغةِ إذا ما اندثر النَّاسُ، وبأنَّهُ إن لم يكتب أبناء التاريخ مجرياته سيأتي من يكتبه عنهم مزوّراً.

لستُ أدّعي بأنني في بضع صفحاتٍ سأنجح بإحاطة كل الأحداث ووجهاتِ النظر، غير أنني أؤمن بكوني جزءاً مهماً وعاملاً أساسياً في منظومة صياغة التاريخ.

المسؤولية كبيرة والأمانة عظيمة، ويجب ألا يتوانى أيّ منا عن إضافة صفحته الخاصة إلى صفحاتِ التاريخ، لأنها باجتماعها كلها ستتّضِحُ التفاصيل، وتتعدد زوايا الرؤية، وتجتمع خيوطُ الحقيقة.

أكتب هنا لأخلِّدَ روحاً يوسفيَّةً لا أريد لها أن تكون رقماً في سجلات الشهداء فحسب...

أكتب هنا من أجل من لا يزال جُرحهُ نازفاً داخل أفرع المخابرات الأسدية، على الرغم من علمي بأن الكتابة وحدها لا تستطيع نصرة المظلومين ولا فك قيود المعتقلين، ولكنها كل ما أملك لهم.

أكتب هنا من أجل ثورة، من أجل قضية ومبدأ، من أجل سوريا الحرة، من أجل أن أكون صادقة تجاه أخلاقي وقيمي، وأخيراً من أجل أن أقول تبّت أيادي سارقي الثورات.

أكتب هنا حقائق حصلت معي شخصياً، جاهدت نفسي عند نسج خيوط نصوصها أن أحقن مخيلتي بإبرة مخدر لأخطّ الحقائق خالصة من دون مُواربةٍ أو زيادة.

قد لا تجد في قصتي هذه إنجازات خارقة تستحق الإكبارَ أو التقديس، غير أنني واثقة بأنني سأكون قادرة على إبهارك بهزائم خرجتُ منها على قيد الحياة.

لستُ أدري -على أيَّةِ حالٍ- فيما إن كانت هذه النتيجة تصبّ في مجرى الانتصارات أم أنها هي الأخرى هزيمة!

أياً يكن، سأرويها هنا، وأمضي بعدها لأكمل حياتي دون ذاكرة، دون ماضٍ.

نعم، أريد أن أكتب لأنسى، وأن أنسى لأعيش، ولكن قبل ذلك أريد أن أذكّر العالم ثم أنسى...

قراءة آمنة، مع مودتي...

راما

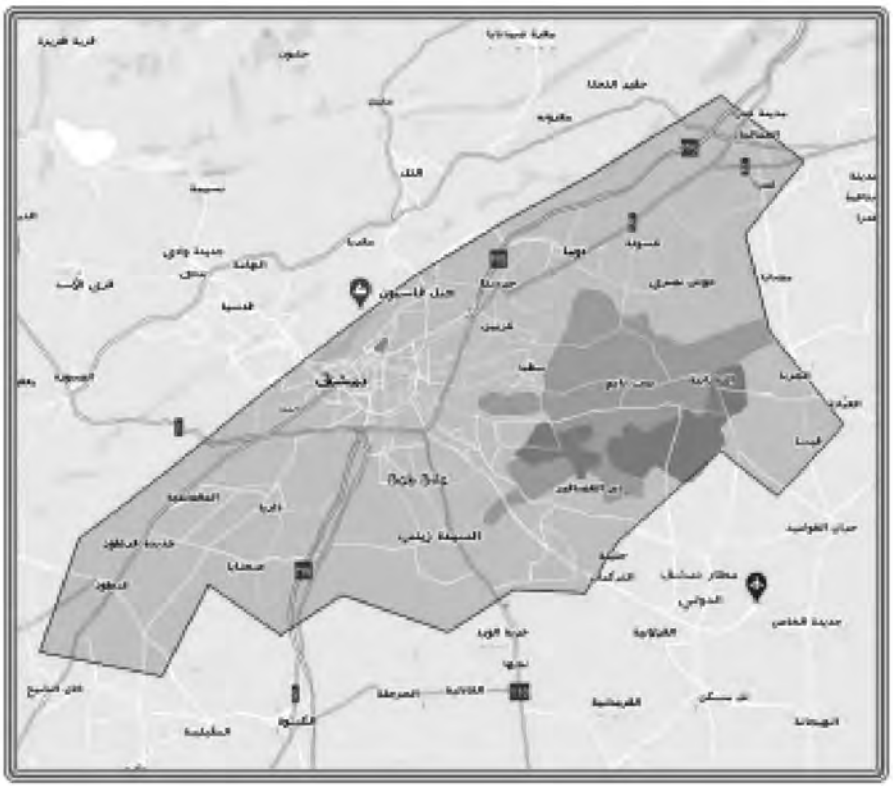

خريطة ريف دمشق

الفصلُ الأوَّلُ:
قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا

١٥/ ١٠/ ٢٠١٩

هأنذا... أقفُ هناك، تماماً في المنتصف، وسط صخبٍ وزحامٍ، أردد بفرح ما قاله يوسف يوماً: ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ يوسف: ١٠٠. يتدلى من ساعدي الأيمن المعطوفِ معطفٌ أبيضُ مكويٌّ بِأناقة، بينما يشارك ساعدي الأيسر صدري في حصارِ أوراقِ محاضراتٍ بَدَتْ لِي مألوفةً برسوماتها، غريبةً بحروفها.

يُزَيِّن جيدي عقدٌ لا كالعقودِ، قلادُته لم تكن مُتَشكِّلةً من تراصِّ ذرَّات الذَّهبِ الخالصِ، ولا يزينُها الزُّمردُ والياقوتُ، بل كانت أثمن من ذلك بكثير، كانت منسوجة من حروف اسمي المطبوعة على بطاقتي الجامعية.

أنظر مباشرة إلى الأمام أُعلِّقُ بصري بمكانٍ علَّقتُ عليه آمالي في أن يخرجني من دائرة العجز وجَلْدِ الذات إن أنا دخلته. فلن يرتاح ضميري حتى أنقذ أرواحاً بعدد تلك التي رأيتها تزهق أمام ناظريَّ دون قدرتي على تحريك ساكن، فَالساكنُ كونٌ بأسره لا يتحرك إلا إذا تحركنا جميعاً بنفس الاتجاه.

إلى يميني جدارٌ عالٍ، استعانت به نبتةٌ عرَّشت حتى وصلت ذُروَتَهُ وأعلنت

انتصارها، خلال تمرُدها أحرقتْ حرارةُ الجدارِ الملتهبِ -بفعلِ أشعَّةِ شمسِ مدينةِ مرسين التُّركيَّة- بعضَ وريقاتِ تلك النَّبتةِ فكشفتْ عن رسمةٍ منحوتةٍ في الجدارِ مُظهرة أفعى تتلوى بخبثٍ قائلة: (بعضُ السُّمِّ شِفَاءٌ.. وبعضُ المرارةِ دواءٌ..)

حِرتُ في كوني سَأستطيع الوصول إلى ذروة ذلك الجدار تماماً كما النبتة، أم لا.

تساءلت هل سأقفز من أعلاه يوماً كما قفزت من على غيره؟!

بعضُ الجدران تضطرنا إلى أن نجتازها بطرقٍ جنونية، دون التفكيرِ بمدى ارتفاعها أو بماهية الآلامِ والكسور التي ستُصيبنا عند ارتطامنا بالأرض بعد السقوط منها.

لا يهم، المهمُّ أن نتخطاها، لا وقت لدينا لانتظارِ الأبوابِ المؤصدة حتى تُفتح، سنقفز ونفتحها بأيدينا من الداخل، لأننا إن لم نفعل ذلك فقد يمضي العمر ونحنُ ننتظرُ البَوَّابَ الذي سيفتحها لنا، وقد يسبقنا يأجوج ومأجوج في نقب سدهم بينما نحن نحاول نقب جدارنا، فتقوم القيامة على حين غفلة منّا.

إلى يساري المشفى؛ مشفى الجامعة. تساءلت: (وجودي هنا نعمة أم نقمة؟!) لستُ أدري...

ازدحامٌ قلق، كذلك الذي عهدته قبلاً، يتخلله صوت سيارات الإسعاف.

وحدي أنا سمعتُ صوتَ هدير طائرات الميغ الذي خزَّنته بكمياتٍ كبيرةٍ في ذاكرتي السَّمعيَّة لأطلقَ جزءاً منهُ مختلطاً بنحيبِ صافراتِ الإنذارِ، مصحوبةً بدفقةٍ عاليةٍ من الأدرينالين تعبث بدورها بأجهزة جسمي.

المشهد هذا يشبه آخر عايشته منذ بضعِ سنوات، لست أدري أيهما الحقيقي وأيهما الخيالي، هل يعقل أن يكون الاثنان حقيقيين، أم أن كلاهما خياليان.

إن كان كذلك فما هي الحقيقة إذن؟! لستُ أدري...

تشابهٌ كبير بين الصورتين، والفارق الوحيد هو أنا!

اختلافٌ كبير بين الصورتين، والتشابه الوحيد هو أنا!

وما بين أنا وأنا، ضعتُ أنا.

رأيت بين الجمعِ أشلاءً تراكبت مع بعضها، وَكوَّنت أشخاصاً بعضهم بوجوه شوهاء وآخرين لا وجوه لهم. كانوا يمشون، يركضون، يتراقصون، يتحركون بريبة، ثم يهدؤون.

ملأ عبق البنفسج المكان، اخترقته رائحة فانيليا تفوح من كتابِ تاريخٍ مرمي إلى قارعة الطريق.

رجلٌ مسرع يحمل بين يديه طفلة تحتضن رغيف خبز، من دون مقدمات وجد يده تُقتلع من جذورها، سقطت يده وسقطت الطفلة، ومات الجميع...

على بعد أمتار طفل ينظر بحرقة إلى وعاء فارغ انسكبَ منه الحساء الذي جاء به إلى والده المريض، بعد أن انتظر سبع ساعاتٍ على ساقه الواحدة، ينتظر دوره لملء رُبع الإناء.

ابتسمت لي من بعيد طفلةٌ تركب أرجوحة في حديقة إلى جانب المشفى لوحت بيدها ثم اختفت، تاركة فردة حذاءٍ وردية صغيرة وبركة من الدماء.

اسودَّ المشهدُ أمامي فجأةً إلى أن أضاء العتمة نوران، أنار أحدهما بعد أن أُطفِئ الأخر للأبد.

دراجة نارية مسرعة وقفت فجأة! هل عادَ الشابُ حقاً لينقُل الآخرين؟ ولكن أين أخواته الثلاث؟!

يخرج من سيارة الإسعاف سرير تتمدد عليه شابة مُصفرة اللون، تلقفتها ممرضتان

بمراييلَ بيضاء بدأت تصطبغ بالحمرة، غير أنَّ الشابة لم تنزف قطرة واحدة. الممرضتان تأكلهما الشظايا، استحالتا أشلاءً مُتبعثرة ودماءً بزمرتين مختلفتين لم تتراصا، تشربتها أقمشة بيضاء لستُ أدري إن كانت معاطف طبية أم أكفاناً.

من بعيد تراءت لي باصاتُ الجامعة تصطف مرقمة بانتظام. إلى أين ستُقِلُّنا؟! إلى المجهول مجدداً؟!

شممت رائحة حريق. أصحابُ الأخدود يحترقون ثانيةً؟! لا.. لا.. هو فقط قلبي!

سيارة إطفاء آتية من بعيد، هي الأخرى تحترق!

وقفت أنظر بِحَيرةَ كشخص دفن العديد من الجثث بحسب ترتيبها الأبجدي، ولا يزال عالقاً عند الكثير منها لا أسماء أبجدية لها. حقاً من سأدفن أولاً؟!

في السماءِ سربٌ من اللقالق.

لا، بل مالك الحزين.

تطير على شكل رقم سبعة أو ثمانية، لست أدري...

أُفَضِّلُ السبعة، تعرفون لماذا؟!

أحب تَميز الأعداد الأولية وتَفَرُّدها بنفسها حرة مستقلة، تكونت بذاتها، دون أن تكون نتاجاً عن ضربِ عددين آخرين، لا تقبل أن يقسمها أحد سواها، وواحد لن يؤثر بها..

لماذا تهاجر الطيور؟!

هل هي الآن في رحلة هجرتها أم في عودتها؟!

هل ستعود هي، وهل سنعود نحن؟!

راما يوسف الحاج علي

- ياسمينة شامية حرة تفتحت مع بدايات شهر آذار عام 1998.
- نشأت و ترعرعت في كنف أسرة ملتزمة.
- درست الإعدادية في مجمع الشيخ عبد القادر قويدر الشرعي بريف دمشق، ثم التحقت في الثانوية بمدارس الرُّواد التربوية.
- ابتدأت دراستها الجامعية في تخصصي الطب البشري، والأطراف الصناعية والأجهزة التقويمية عام 2016.
- حالياً طالبة طب بشري في جامعة مرسين التركية.
- شغوفة بالعلم، طموحة، ثائرة، والأهم من ذلك (إنسان).

يرحلون ونبقى

من حرفٍ هنا وآخرَ هناك، نَسجتُ خيوط هذه الرواية.
بين سطورها ستقرَؤُنِي، أو لنقُل -على وجه أكثر دِقَّة- ستقرأ شيئاً مني، شيئاً مما عايشته في سنوات الحرب التي التهمت باكورةَ شبابي.
ستقرأ شيئاً مما رأيتُ، شيئاً مما عشتُ، وشيئاً مما متُّ...
أكتــب هنــا وقائعَ حصلت في زمنٍ مجرياتُ أحداثه غيــر قابلة للفهم، وفي مكانٍ لا تعرفه خريطة الإنسانية، ولكنه يقبع جغرافيَّاً على خاصرة العاصمة السورية دمشق.
أكتب هنا من أجل أن أرسم تاريخاً أوثّق فيه شيئاً أبعد من الأحداث، تاريخاً أوثّق فيه المشــاعر، فتوثيق ما حدث -بالنســبة لي- يُعَدُّ واجباً، لأنني على يقين بأن لا شيءَ يبقى غيرَ اللُّغةِ إذا ما اندثر النَّاسُ، وبأنَّه إن لم يكتب أبناء التاريخ مجرياته سيأتي من يكتبه عنهم مزوّراً.
أكتب هنا من أجل ثورة، من أجل قضية ومبدأ، من أجل سوريا الحرة، من أجل أن أكون صادقة تجاه أخلاقي وقيمي، وأخيراً من أجل أن أقول تبَّت أيادي سارقي الثورات.

KORSANI DEĞİL
TBYM
BENİ OKU

ISBN 978-605-7618-60-3
9 786057 618603

مكتبة الأسرة العربية اسطنبول
نحو أسرة عربية واعية ..
ARAP AİLE KÜTÜPHANESİ - ISTANBUL
طبـاعــة ونشــر وتوزيع
إصدارات مُختــارة للأســرة العربيــة
UFUK neşriyat
BASIN-YAYIN-DAĞITIM

www.arabfamilybs.com
+90 212 631 81 09
+90 531 935 71 31
info@arabfamilybs.com